تمثلات الحاكم في الشعر الأموي
التمثلات الدينية اختياراً

الباحث دحام سعدون عبد العزيز
الأستاذ الدكتور أحمد حياوي السعد
قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة البصرة

الملخص:-

يستقصي البحث بعض الحجج الدينية التي استند إليها حكام بني أمية لإثبات حقِّهم في الخلافة ، وإضفاء الشرعية على حكمهم . فهم ـ بتعبير شعرائهم عن هذه الحجج ـ اختارهم الله ليخلفوه في الأرض ، وأنَّهم يتمتعون بصفات قدسية يتبرك بها الناس ، فضلاً عن كونهم أئمةً مهديين ؛ لذا كل خروج عليهم هو خروج على إرادة الجماعة النابعة من إرادة الله الذي استخلفهم ليكونوا أئمةً وخلفاء على المسلمين جميعاً.

كلمات مفتاحية: تمثلات ، الحاكم ، الجبريَّة ، المهدويَّة ، صفات قدسية.

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٢/١٢/٠٦ **تاريخ القبول:** ٢٠٢٣/٠٢/٠٧

The Representations of the Ruler in the Umayyad Poetry: The Religious Representations as Choice

Res.Dahham Saadoun Abdel Aziz
Prof.Dr. Ahmed Hayawi Al-Saad
Department of Arabic Language / College of Arts / University of Basrah

Abstract:

The research investigates some of the religious arguments relied upon by the rulers of the Umayyads to prove their right to the caliphate and to legitimize their rule. They - in the expression of their poets about these arguments – are chosen by God to succeed Him on earth, and that they enjoy sacred attributes with which people seek blessing, in addition to being guided imams; Therefore, every revolt against them is a rebellion against the will of the group emanating from the will of God who appointed them to be imams and caliphs over all Muslims.

Keywords:Representations, ruler,jabriyya, Mahdauism, sacred attributes .

Received:06/12/2022 **Accepted: 07/02/2023**

المقدمة:-

أحدث الإسلام انقلاباً تاماً في حياة العرب الدينية ، وبدَّل في مقاييسها ونُظُمها ومرافقها ، كما بدَّل من نفسية العربي وشخصيته ونمط تفكيره ، فبعد أنْ كان ـ العربي ـ يُحب أنْ يُوصف (بالكرم والشجاعة والحلم ... ونحوها من الأوصاف التقليدية المتداولة) ، أصبح يحرص ـ في الوقت ذاته ـ على أنْ يُوصف بصفات أخرى دينية أكثر تأثيراً في المُتلقي ، ووقعاً في نفسه . من هنا أضفى الشعراء الأمويون على حكَّامهم صفات التقوى والورع وتلاوة القرآن والحفاظ على سُنَّة الرسول والزُهد في متاع الدنيا وحماية المسلمين والذود عن حرماتهم . كما أسبغوا عليهم كثيراً من الألقاب الدينية كخليفة الله ، وأمين الله ، وإمام المسلمين ، والخليفة المبارك ... وغيرها لم يفرقوا بين مَنْ حمل هذه الصفات ، منهم ، حقّاً وممَّن لم يحملها ، فكانوا ـ عندهم ـ على مثال واحد من الجلالة ، والقداسة ، واليمن ، والبركة ، والخير ... ونحو ذلك . لذا ارتأينا أنْ نتناول ، في هذا البحث ، بعض التمثلات الدينية ، التي وُصف بها الحاكم الأموي ؛ للوقوف على كنهها وواقعها ، وكشف معايبها وفضح غاياتها ، في مباحث ثلاثة ، هي :

المبحث الأول : الجبريَّة (الحاكم الأموي منصَّبٌ من الله تعالى) :

الجبر ((إسناد فعل العبد إلى الله تعالى))[١] ، فالإنسان ، بحسب مبدأ أصحاب هذه الفكرة ، مُجبرٌ على أعماله ، وأنَّ مشيئة الله قد شاءت أنْ يتصرف الإنسان بهذا الفعل أو ذاك ، أي ((أنَّ إرادة الإنسان العاقلة عاجزة عن توجيه مجرى الحوادث ، وأنَّ كلَّ ما يحدث للإنسان ، قد قُدِّر عليه أزلاً فهو مُسيَّر لا مُخيَّر))[٢]. فعقيدة الجبرية تُسقط حقوق الرعيَّة بالكامل ، فلا معنى للحقوق بعد أنْ أعطى الله حقَّ التأمُّر على عباده للحاكم ، فالأرض لله ، وهو خليفته ، ويجب على الناس أنْ يُبايعوه ، طوعاً أو كرهاً ، والموت لِمَنْ لم يُبايعْ.[٣]

ولعلَّه لذلك أشاعت الدولة الأموية وأظهرت ، في الحياة الفكرية ، بمجتمعها عقيدة الجبر ؛ لتبرر مظالمها وما أحدثته ومثلته من تحول بالسلطة السياسية ، نقلها من خلافة شورية إلى مُلك وراثي عضوض[٤] . كما وظَّف الأمويون مذهب الجبر في الخلافة ؛ لإثبات حقهم فيها ، وتعلقوا به ؛ لتصحيح احتِيازهم لها ، فقد استقروا على أنَّ الله اختارهم للخلافة ، وآتاهم المُلك ، وأنَّهم يحكمون بإرادته ، ويتصرفون بمشيئته[٥] . من هنا صارت طاعة الأمويين واجبة عملاً بقوله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا))[٦] ، فألبسوها ثوباً دينياً ؛ من خلال سلطة النص القرآني ؛ لأنَّ طاعة ولِيّ الأمر واجبة ، فكيف إذا كان وليُّ الأمر منصَّبٌ من الله تعالى ؟! .

وإذن ، فالخلافة هبةٌ إلهية ، وإنَّ الله تعالى قد منح بني أميَّة هذه الهبة ، وفي ذلك يقول معاوية بن أبي سفيان مسوِّغاً الجبرية في خلافته على المسلمين ، في أول خطاب له في النخيلة : ((ما قاتلتكم لتصلُّوا ولا لتصوموا

ولا لتحجُّوا ولا لتزكُّوا وقد أعرف أنَّكم تفعلون ذلك ، ولكن ، إنَّما قاتلتكم لأتأمَّر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون)). [٧]

ولا شكَّ أنَّ معاوية ، بخطابه هذا ، قد أعلن انتهاء الدولة الإسلامية وقيام الدولة الأموية ، مُدَّعياً أنَّهم ـ الأمويون ـ أسوس من غيرهم على الأمة ، إذْ يقول : ((الأرض لله ، وأنا خليفة الله))[٨] ، فهو خليفة الله بقانون الغلبة وعقيدة الجبرية . وقد رسخت هذه العقيدة حتى بعد حياته واستمرت على يد ، ابنه ، يزيد ، وبني مروان من بعده [٩] ؛ لأنَّهم كانوا ((على يقين من أنَّ تقبُّل المسلمين لفكرة مشروعية حكمهم أمرٌ بالغ الصعوبة ، فهم يُدركون قبل غيرهم أنَّ المسلمين لم ينسوا لهم ، بعدُ ، أنَّهم كانوا أشدَّ أعداء الإسلام ، وأنَّهم أبناء الطلقاء))[١٠]، فاتخذوا هذه الفكرة السبيل الذي يصلون به إلى مرادهم . ومن هنا ، لا عجب ، إنْ كان ـ واليهم ـ الحجَّاج الثقفي يرى أنَّ طاعة الخليفة واجبة على الناس ، وأنَّ الخليفة أفضل من الملائكة المقرَّبين والأنبياء والمرسلين ، وأنَّ خليفة الله ، في أرضه ، أكرم من رسوله إليهم.[١١]

أما الشعراء فلم يكونوا بمعزلٍ عن فكرة الجبر ، فقد مثلوها خير تمثيل ، إما عن عقيدة راسخة مؤمنين بها ، وإما من أجلِ إرضاء الحاكم ؛ طمعاً بنيل عطاياهُ ((إذ اندفعوا من خلال اقتناعهم بمذهب الجبرية إلى الدفاع عن حق الخليفة الأموي في الحكم ، وتجاوزوا حدودهم إلى طرح التمثُلات من منطلق القداسة لتلك الخلافة وتكفير المطالبين بها من غير الأمويين))[١٢] . وحتى تتم عملية البيع والشراء ، بين المادح والممدوح ، لابدَّ من تربية الممدوح وترويضه على إنَّه محتاج حاجة ماسة للمادح ، وأنَّ شرفه وصيتَهُ واسمه وقضيته كلها تتوقف على المادح . وعليه لابدَّ من الممدوح أنْ يدفع ، وبسخاء ، ثمناً لهذه السلعة الضرورية والترويج لها.[١٣]

وهكذا استند الشعراء إلى هذه الفكرة ، وغيرها ، من أجل الدفاع عن الحاكم والتحجُّج في أحقيته بالحكم ؛ حتى ينالوا ثمن ترويجهم لسلع الحاكم الأموي المتعددة ، التي تنطوي تحت ما يسمى ، حديثاً ، بأيديولوجيا الدين[١٤] ، والواقع إنَّه دين تبريري يسعى الى تشويه مبادئ العقيدة الإسلامية . ولعلَّ أوضح الأمثلة على فكرة الجبرية قول جرير مادحاً يزيد بن عبد الملك بأنَّ الله فهَّمه الحكم واختاره للمُلك ، فهو خليفة الله المُثبَّت بكتابه والمنصور بقدرته ، وأنَّ الناس تعرف فضلَهُ وسابقته في الإسلام ، وبأخلاقه وفضله زان المنابر ، فكان ، حقاً ، خليفة الله في الأرض ، وبهذا يقول :

أما يزيدُ فإنَّ الله فهَّمهُ حُكماً وأعطاهُ مُلكاً واضحَ النورِ

خليفةَ الله إنّي قد جعلتُ لكُم غُرّاً سَوابِقَ من نَسجي وتحبيري

لا يُنكِرُ الناسُ قِدْماً أنْ تُعرِّفَهُمْ سَبقاً إذا بَلغُوا نَحـرَ المَضامِيرِ

زَان المَنابِرَ واختالتْ بمُنْتَجبٍ مُثبّتٍ بكتابِ اللهِ منصـورْ[١٥]

ويكرر المعنى نفسه في مديحه لعبد الملك ، مدعياً بأنَّ مشيئة الله قد قضت بأنْ يكون خليفةً للمسلمين ولا تبديل لمشيئته سبحانه ، فيقول :

أللهُ طوَّقكَ الخلافة ـ والهدى والله لَيْسَ لِمَا قَضَى تَبْديلُ

إنَّ الخلافةَ بالذي أبليَتُمُ فيكُمْ فليس لملكها تحويلُ[٥]

وعلى شاكلة عبد الملك بن مروان ، عمر بن عبد العزيز فهو ـ عنده ـ خليفة الله ، اختاره الله للخلافة ، كما اختار موسى ﷺ للرسالة ، فيقول :

خَليفَةَ اللهِ ثُمَّ اللهُ يَحفَظُهُ وَاللهُ يَصحَبُكَ الرَّحمَنُ في السَفَرِ

نالَ الخِلافَةَ إذ كانَت لَهُ قَدَراً كَما أَتى رَبَّهُ موسى عَلى قَدَرِ[٥]

أما أيوب بن سليمان بن عبد الملك فيصفه ، جرير ، بأنَّه الحاكم الذي اختاره الله تعالى وما بعد أمر الله تعقيب ، فهو خليفة الله في أرضه يعرفه أهل الزبور ، واسمه في التوراة مكتوبُ . وهو ، هنا ، يضع أيوب بمنزلة الرسول ﷺ ، فضلاً عن جعله بمنزلة يوسف ﷺ ، إذْ يقول :

اللهُ أَعطاكُمُ مِن عِلمِهِ بِكُمُ حُكماً وَما بَعدَ حُكمِ اللهِ تَعقيبُ

أَنتَ الخَليفَةُ لِلرَحمَنِ يَعرِفُهُ أَهلُ الزَبورِ وَفي التَوراةِ مَكتوبُ

كُونُوا كيوسُف لمّا جاءَ إخوتُه واستَعرفوا قالَ: ما في اليومِ تثريبُ

الله فضلهُ واللهُ وفَّقَهُ توفيقَ يُوسُفَ إذ وصَّاهُ يعقوبُ[٥]

وعلى نحو جرير ، الأخطل فهو يرى بأنَّ الله تعالى جعل الخلافة في بني أمية ؛ لأنَّهم موضع ثقة ، فهم أحقُّ بها ، وأنَّ عبد الملك بن مروان استمد حقَّهُ في السلطة لا من إجماع ، وإنَّما أُعطيت له من السماء ، فيقول :

وَقَد جَعَلَ اللهُ الخِلافَةَ فيكُمُ بأَبيَضَ لا عاري الخِوانِ وَلا جَدبِ

وَلَكِن رَآكَ اللهُ مَوضِعَ حَقِّهِ عَلى رَغمِ أَعداءٍ وَصَدّادَةٍ كُذبِ[٥]

وعلى شاكلة جرير والأخطل ، الفرزدق فهو يصف عبد الملك بن مروان بأنَّه خليفة الله غير المغلوب ، ولاَّه أرضه ، بعد الفساد الذي حلَّ بها من فتن وحروبٍ من قبل كذَّاب مكة ـ عبد الله بن الزبير ـ ومن هنا كانت دعوة الناس لله أنْ يستخلف عليهم خيرهم فكانت الإجابة منه ، سبحانه ، أنْ جعل عبد الملك بن مروان خليفةً عليهم ؛ ولا عجب (فاللهُ يسمعُ دعوى كُلِّ مكروبِ) ، يقول :

فَالأَرضُ لِلَّهِ وَلّاها خَليفَتُهُ وَصاحِبُ اللَهِ فيها غَيرُ مَغلوبِ

بَعدَ الفَسادِ الَّذي قَد كانَ قامَ بِهِ كَذّابُ مَكَّةَ مِن مَكرٍ وَتَخريبِ

راموا الخِلافَةَ في غَدرٍ فَأَخطَأَهُم مِنها صُدورٌ وَفازوا بِالعَراقيبِ

كانوا كَسالِئَةٍ حَمقاءَ إِذ حَقَنَت سِلاءَها في أَديمٍ غَيرِ مَربوبِ

وَالناسُ في فُتنَةٍ عَمياءَ قَد تَرَكَت أَشرافَهُم بَينَ مَقتولٍ وَمَحروبِ

دَعوا لِيَستَخلِفَ الرَحمَنُ خَيرَهُمُ وَاللَهُ يَسمَعُ دَعوى كُلِّ مَكروبِ[٦]

ويُكرر الشاعر ، المعنى نفسه ، في مدح هشام بن عبد الملك ، بأنَّ الله كتب له النصر ، وليس بمغلوبٍ مَنْ كان الله صاحبه ، فالله مَلَّكهُ أرضَهُ ، وبه ثبَّت دينهُ ، فيقول :

أَبى اللَهُ إِلّا نَصرَكُم بِجُنودِهِ وَلَيسَ بِمَغلوبٍ مِنَ اللَهِ صاحِبُه

أَبى اللَهُ إِلّا أَنَّ مُلكَكُمُ الَّذي بِهِ ثَبَتَ الدينُ الشَديدُ نَصائِبُهْ[٦]

ومن نحو هذا قول الراعي النميري ، في مديحه لعبد الملك بن مروان ، بأنَّ الله اختاره للخلافة ، فهو أمين الله المُعتمد :

إِنَّ الخِلافَةَ مِن رَبّي حَباكَ بِها لَم يُصفِها لَكَ إِلّا الواحِدُ الصَمَدُ

أَمراً رَضيتَ لَهُ ثُمَّ اِعتَمَدتَ لَهُ وَاِعلَم بِأَنَّ أَمينَ اللَهِ مُعتَمَدُ[٦]

أما عدي بن الرقاع العاملي فممدوحه الوليد بن عبد الملك قد تولَّى أمر هذه الأمة بإرادة الله تعالى ؛ ليأخذ بيدها إلى الصلاح والرشاد ، فعمَّر الأرض ، ونفى عنها الفساد ، فنصره الله وأعزَّه بالظفر الذي لم ينله أحد من الخلفاء ، فيقول :

وَلَقَد أَرادَ اللَهُ إِذ وَلاكَــها مِن أَمَّةٍ إِصلاحَها وَرَشادَها

وَعَمَّرتَ أَرضَ المُسلمينَ فَأَقبَلَت وَنُفيتَ عَنها مَن يُريدُ فَسادَها

وَأَصَبتَ في أَرضِ العَدُوِّ مُصيبَةً بَلَغَت أَقاصي غورِها وِنِجادَها

نَصراً وَظَفراً ما تَناوَلَ مِثلَهُ أَحَدٌ مِنَ الخُلَفاءِ كانَ أَرادَها[١٣]

ويقول عنه ، أيضاً ، في كلمة أخرى ، بأنَّ الله اصطفاه للإسلام ؛ لأنَّه أهلٌ للخلافة ، فيحمدُ الله على اختياره له، فهو الحافظ لهم ، بعد الله ، فيقول :

ثمَّ اِصطَفى اللَهُ لِلإِسلامِ بَعدَهُما مِن أَهلِ بَيتِهِما نوراً وَبُرهانا

رَأى الوَليدُ لَها أَهلاً فَمَلَّكَهُ وَاِختارَ مِنّا الَّذي يَرضى وَأَرضنا

فَالحَمدُ لِلَّهِ إِذ وَلّى خِلافَتَنا وَأَمرَنا خَيرَنا ديناً وَأَقوانا

مُرَّ العُداوَةِ يَشقى الكاشِحونَ بِهِ حُلواً إِذا لَم تَرِبهُ ريبَةٌ لانا

نَحنُ الرَعِيَّةُ وَالرَحمَنُ يَحفَظُنا وَأَنتَ في الأَرضِ بَعدَ اللَهِ تَرعانا[١٤]

ولا يزال يكرر ، الشاعر العاملي ، المعنى نفسه ، في الوليد بن عبد الملك ، بأنَّ الله تعالى قضى له الخلافة . وقضاء الله مفعول ؛ لأنَّها لا تصلح إلاَّ له ؛ لأنَّه امرؤٌ للشدائد حمولُ ، فيقول :

وَقَضى لَكَ اللَهُ الخِلافَةَ بَعدَهُ وَقضَاءُ رَبِّـكَ نافِـذٌ مَفعولُ

إِنَّ الخِلافَةَ لَم يَكُن لِيَطيقَها إِلّا اِمرؤٌ لِلمُعلاتِ حمولُ[١٥]

أما بنو مروان فإنَّ الله تعالى قد رضِيَ عنهم واصطفاهم لعباده ؛ لأنَّهم أهلٌ لذلك ؛ ولأنَّهم أصحاب الرأي السديد ، وخير البرية من الأتقياء ، بهذه المعاني يكرر عدي بن الرقاع مدحه للوليد بن عبد الملك ، فيقول :

رَضِيَ اللَهُ عَنهُم وَاِصطَفاهُم وَلَهُ مِن عَبادِهِ أَصفياءُ

فَأَرى أَنَّهُم لِذَلِكَ أَهلٌ فَهُم خَيرٌ مَن تُظَلُّ السَماءُ

حَفَظوا ما وَلاهُمُ اللَهُ مِنهُم كُلَّ قَومٍ بِأَمرِهِم أَولِياء

وَإِذا ما أَرادَ رَحمَةَ قَومٍ رَبُّهُم فَهوَ فاعِلٌ ما يَشاءُ

جَعَلَ الأَمرَ في ذَوي الرَأيِ مِنهُم إِنَّ خَيرَ البَرِيَّةِ الأَتقِياءُ[٢٧]

ومن الحق أنَّ نقول : إنَّ ما قدمناه من أشعار تُعد مُبالغات سمجة ، يرفضها الضمير المسلم ، ولكن المال والرغبة فيه أعمت بصائر هؤلاء الشعراء ، فأنستهم رعاية دينهم وغيَّبت ضمائرهم . فمَنْ يكون يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك .. وغيرهم من خلفاء بني أمية ، وماذا كان فيهم من خُلُق ودين ليختارهم الله تعالى لأمرِ المسلمين.[٢٧]

ولكن يبدو أنَّ جهاز الدولة الإعلامي ، الذي يُمثله الشعراء ، قد عمل على تحقيق هدفين مهمين ، من أهداف بقاء نظام الحُكم الأموي ، الأول: أشاع بين المسلمين أنَّ الحاكم الأموي يُمثل الدين ، بكلِّ ما يعنيه من عقائد، وعلى المسلمين التسليم له . فَهُم ـ الشعراء ـ يعلمون ، جيداً ، أنَّ أغلب الناس يكون ولاؤهم للدين ؛ لأنَّه محور وجودهم ، ومستعدون ، في الأعم الأغلب ، للموت من أجله[٢٨] . وأما الثاني: فمن خلال الأول تُردع الجماعات التي يرى الحاكم الأموي أنَّها تُهدد وجوده ومصالحه ، وتطرح بالتالي هُوية مختلفة ، تنازعه في حكمه[٢٩] ، فتكون له الغلبة من خلال ما أشاعه بين الرعيَّة ، من وجوب التسليم والانقياد له ؛ لأنَّه يمثل إرادة الله تعالى في أرضه .

المبحث الثاني : الحاكم الأموي هو المهديُّ المنتظر:

المهدي لفظة جاهلية التاريخ ، مولداً ونشأةً ، وليست من مستحدثات الإسلام ، فالهداية إلى الخير وإلى الطريق موجودة ـ دون ريب ـ في العصر الجاهلي ، وعندما جاء الإسلام زاد في معانيها الهداية إلى الإيمان فأسبغ عليها ثوباً دينياً زادها على الألسن انتشاراً ودوراناً.[٣٠]

ولفظة المهدي اسم مفعول من الفعل (هَدَى) ، قال تعالى : ((وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى))[٣١] ، بمعنى : أرشده ودلَّه ، فهو المرشد والدال على الطريق القويم.[٣٢]فالمهديُّ ـ إذن ـ هو الذي يرشد الآخرين لطريق الحق .

وقد ورد ذكره ـ المهدي ـ في الحديث الشريف ، فقال ﷺ : ((إِنَّ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيَّ يَخْرُجُ يَعِيشُ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا))[٣٣] ، وقال :ﷺ((يَكُونُ مِنْ أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا ، وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا ، وَتُمْطِرُ السَّمَاءُ قَطْرَهَا))[٣٤] ، ويقول)) : ﷺ الْمَهْدِيُّ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ))[٣٥]

وبالجملة تعد المهدوية ، أو عقيدة المهدي المنتظر من العقائد الدينية التي يُؤمن المسلمون بها وليست مقصورة على طائفة دون أخرى* . وليس من غايتنا ، هنا ، أنْ ندخل في جدل مكان وزمان وكيفية الظهور ، ولكنَّا نُريد

أنْ نصل مسرعين إلى القول بأنَّ هذه العقيدة هي من العقائد الأساسية عند الشيعة ، ((فهي من ضروريات مذهب الإماميَّة الاثني عشرية حتَّى صار القول بها مدحاً في الرجل عند الخاصَّة ، وعلامة من علامات التشيُّع عند العامَّة))[٣٦]. لذلك نجد إنَّ أول مَنْ أشار إلى هذه الفكرة ، في الشعر الأموي ، هم الشعراء الذين مدحوا آل البيت الكرام (عليهم السلام) ، على اعتبار أنَّ الإمام المهدي (عج) من صُلْبهم ، وفي ذلك يقول كُثيِّر عَزَّة في مدح محمد بن الحنفية :

هُوَ المَهدِيُّ خَبَّرناهُ كَعبٌ أَخو الأَخبارِ في الحِقَبِ الخَوالي[٣٧]

ويقول فيه أيضاً :

ما مت يا مهديُّ يا ابن المهتدي أنت الذي نرضى به ونرتجي

أنت ابن خيرِ الناس من بعد النَّبي أنت إمامُ الحقِّ لسنا نمتري[٣٨]

وممَّن تناولوا هذه الفكرة وآمنوا بها ، أيضاً ، السيد الحميري ، الذي كان من أتباع محمد بن الحنفية ، في بداية حياته ، يقول :

وقُل يا ابن الوصيِّ فدتك نفسي أطلتَ بذلك الجبلِ المقاما

فمرَّ بمعشرٍ والوك منّا وسمّوك الخليفةَ والإماما

وعادوا فيك أهلَ الأرض طراً مقامُك عنهمُ ستين عاما

وما ذاق ابنُ خولةَ طعمَ موتٍ ولا وارت له أرضٌ عظاما

لقد أوفى بمورقِ شعبِ رضوى تراجعُهُ الملائكةُ الكلاما

وإن له به لَمقيلَ صدقٍ وأنديةً تحدِّثُه كراما

هدانا الله إذ جرتُم لأمرٍ به ولديه نلتمس التماما

تمامَ مودة المهديِّ حتى تَروا راياتِنا تَترَى نظاما[٣٩]

وقد تأثر بعض شعراء البيت الأموي بعقيدة المهدوية ، التي كانت من معالم الشيعة ، في أول الأمر، فوصف بعضهم الخليفة الأموي بأنَّه المهدي المنتظر ، وعزا إليه صفات روحية ، مثل التي عزاها شعراء الشيعة إلى أئمتهم ، وقد يكون مرد هذا نوع من مقابلة الدعوى بمثلها ؛ لكن دعاة شعراء الشيعة كانوا ينتظرون مجيء الإمام المهدي ، أما شعراء البيت الأموي لا يتوقعون مجيئه ، فحسب ، بل يُقرُّون أنَّه هو الخليفة القائم ، وبهذا يُوقعون اليأس في قلوب الشيعة ، وقلوب الذين يميلون إلى عقيدتهم ، في رجعة الإمام ، فتضعف قوتهم وتهدأ ثورتهم[٤]. والشاعر ابن بيئته ، عالم بخفاياها ، مؤرخ لمجاري أمورها ، مُتفننٌ بتمثُلاته ، يختارُ من اللفظ أبعده ، ومن المعاني أكثرها وقعاً في النفوس ، واصلاً بذلك لغايته ؛ إرضاءً لممدوحه ومُؤثراً في نفوسِ محبّي ممدوحه وأعدائه .

لذلك نجد أنَّ كثيراً من شعراء البيت الأموي قد مَثَّلوا الحاكم الأموي بهذه الفكرة ، فجمعوا بين معنى المهدوية البسيط ، الدال على الهداية والسلوك الحسن والتعامل الإنساني الفاضل ، وبين معناها الفكري والعقدي ؛ كي يرسموا الصورة العقديَّة المستوحاة من فكرة المهدوية التي اعتمدت على الأساس الذي وُضِع لها فعلاً[٥] .

وفي معنى المهدوية البسيط الدال على الهداية والسيرة الحسنة ، والقائمة على الطاعة والتعبُّد وعصيان هوى النفس ، يقول جرير واصفاً ممدوحه عمر بن عبد العزيز :

أَنتَ المُبارَكُ وَالمَهدِيُّ سيرَتُهُ تَعصي الهَوى وَتَقومُ اللَيلَ بِالسُوَرِ

أَصبَحتَ لِلمِنبَرِ المَعمورِ مَجلِسُهُ زَيناً وَزَينَ قِبابِ المُلكِ وَالحُجَرِ[٦]

وعلى نحو عمر بن عبد العزيز يصف ـ الشاعر نفسه ـ هشام بن عبد الملك بأنَّه المهدي ، صاحب الحُكم الرشيد ، الذي يطيب من أطاعه ونزل به ، ولذا فإنَّ طاعته ـ عنده ـ واجبة وفيها رضىً ، وإنَّ مَنْ خالفَهُ ، من أهل الضلالة ، يصيبه مثل ما أصاب قوم ثمود . فجرير في مدحه لهشام ، هنا ، يجمع بين معني المهدوية البسيط ، الدال على الهداية ، والمعنى العقدي . فممدوحه ، إلى جانب كونه صاحبَ هدايةٍ ، يحمل أوصاف المهدي المنتظر ، الذي يعم على البرية (منه) فضلٌ ، وتُطرِق من (مخافته) الأسودُ ، فيقول :

تعرَّضت الهُمومُ لَنا فَقالَت جُعادَةُ أَيُّ مُرتَحَلٍ تُريدُ

فَقُلتُ لَها الخَليفَةُ غَيرَ شَكٍّ هُوَ المَهدِيُّ وَالحَكَمُ الرَشيدُ

هِشامُ المُلكِ وَالحَكَمُ المُصَفّى يَطيبُ إِذا نَزَلتَ بِهِ الصَعيدُ

يَعُمُّ عَلى البَرِيَّةِ مِنكَ فَضلٌ وَتُطرِقُ مِن مَخافَتِكَ الأُسودُ

وَإِن أَهلُ الضَلالَةِ خالَفوكُم أَصابَهُمُ كَما لَقِيَت ثَمودُ

وَأَمّا مَن أَطاعَكُمُ فَيَرضى وَذو الأَضغانِ يَخضَعُ مُستَقيدُ[٣٤]

ويكرر جرير الفكرة نفسها ـ بمعناها العقدي ـ في مديحه لسليمان بن عبد الملك ، فهو المنقذ والمخلِّص الذي يُجير الناس من المظالم مؤدياً ، بذلك ، وصية رسول الله ﷺ ، فيقول :

سُلَيمانُ المُبارَكُ قَد عَلِمتُم هُوَ المَهدِيُّ قَد وَضَحَ السَبيلُ

أَجَرتَ مِنَ المَظالِمِ كُلَّ نَفسٍ وَأَدَّيتَ الَّذي عَهِدَ الرَسولُ[٣٥]

وفي سليمان ، أيضاً ، يقول بأنَّه المهدي الذي يُفزعُ إليه ، وبه يُستَسقى الغمام ، وهو الخليفة والإمام الذي تباشرت البلاد بحكمه ، حين قدم الفرائض واستقام ، وهنا دليل على أنَّ الشاعر ، جرير ، يريد من المهدوية ، إلى جانب معنى الهداية ، معناها العقدي :

إِلى المَهدِيِّ نَفزَعُ إِن فَزِعنا وَنَستَقي بِغُرَّتِهِ الغَماما

رَضينا بِالخَليفَةِ حينَ كُنّا لَهُ تَبَعاً وَكانَ لَنا إِماما

تَباشَرَتِ البِلادُ لَكُم بِحُكمٍ أَقامَ لَنا الفَرائِضَ وَاِستَقاما[٣٦]

وعلى شاكلة جرير الفرزدق ، فهو يصف الوليد بن عبد الملك بأنَّه المهدي الذي ورث هذا اللقب من عثمان بن عفان ، ومن بعده معاوية ، ويزيد بن معاوية ، ومروان بن الحكم ، وعبد الملك بن مروان ، وهو ـ الوليد ـ سادسهم . فَهُم ، إلى جانب كونهم هداة ، مهديُّون . وهنا الشاعر يجمع بين معني المهدوية ، البسيط ، الدال على الهداية ، والمعنى العقدي .

وغني عن البيان أنَّ الفرزدق قد جعل المهدوية ، هنا ، وراثة يرثها الابن عن آبائه وأجداده ، فهي ـ المهدوية ـ لم تكن عنده في شخص واحد فقط ، بل هي في مجموعة أشخاص ، وبهذا ـ يكون الشاعر ـ قد غيَّر كلَّ أوصاف المهدي المنتظر ، فلم تذكر لا المصادر الدينية ولا التاريخية أنَّه ـ المهدي المنتظر ـ قد ورث مهديته عن آبائه وأجداده ، وإنَّما هي صفة خاصة به دون سواه ، فيقول :

وِمن عَبد شمسٍ أنت سادِسُ سِتّةٍ خلائفَ كانُوا منهم الَعمُّ والأبُ

هُداةً ومهدِيّينَ عثمانُ منهمُ ومَروانُ وابنُ الأبطحَينِ المُطيّبُ[٣٧]

وعلى نحو الوليد ، سليمان بن عبد الملك ، يصفه الفرزدق ، أيضاً ، بأنَّه المهدي الذي أرسله الله تعالى للناس بعد أنْ دعوه ، في الصبح والأسحار والعصر ، بأنْ لا يُميت سليمان ، وأنْ يُبقيه أماماً ووليَ أمرٍ لهم ، فاستجاب الله ، تعالى ، دعوتهم وأنقذهم بخلافة سليمان ، المهدي ـ على حدِّ قوله ـ فالشاعرُ ، هنا ، يركز على الصفة العقديَّة التي بُعث المهدي من أجلها ، وهي صفة إنقاذ الناس من الظلم الذي حلَّ بهم ، وبهذا المعنى يقول :

كُنّا نُنادي اللهَ نَسأَلَهُ في الصُبحِ وَالأَسحارِ وَالعَصرِ

أَن لا يُميتَكَ أَو تَكونَ لَنا أَنتَ الإِمامَ وَواليَ الأَمرِ

فَأَجابَ دَعوَتَنا وَأَنقَذَنا بِخِلافَةِ المَهدِيِّ مِن ضُرِّ

ويبقى الفرزدق يلح على الفكرةِ نفسها في وصف سليمان بن عبد الملك ، بأنَّ الله تعالى قد نعته في الكتب السماوية ، فكم من قسٍ وحَبْرٍ أَخبر بخلافة المهدي ، سليمان بن عبد الملك ، ولا شك أنَّه بهذا الوصف قد خرج عن كلِّ مألوف ومعلوم ؛ لأنَّ هذه الكتب السماوية لم تنعت بمجيء أحد إلاَّ النَّبي محمد ﷺ ، وبهذا يقولُ :

أَنتَ الَّذي نَعَتَ الكِتابُ لَنا في ناطِقِ التَوراةِ وَالزُبرِ

كَم كانَ مِن قِسٍّ يُخَبِّرُنا بِخِلافَةِ المَهدِيِّ أَو حَبرِ

وفي سليمان ، أيضاً ، يقول مخاطباً ناقته الهزيلة المُتْعَبة بأنْ تُسرع للوصول إلى المهدي ، سليمان بن عبد الملك، الذي يهدي به الرحمن مَنْ خشي الضلالا ، ولو علمت ـ ناقته ـ أنَّها سائرةٌ له ، ما اشتكت الكَلَل والتعب. فالفرزدق ، من خلال وصفه هذا ، يلح على معنى المهدوية العقدي ، فهو الإمام الذي يهدي به الله تعالى المظلِّين، الذين ظلوا الطريق الصواب :

أقولُ لنَقوةٍ نقِبتْ يداها وكدّ برحلِ راكبِها المحالا

ولوْ تدْرِي لَقُلْتُ لهَا اشْمعِلّي ولا تَشكِي إليّ لكِ الكَلالا

فإن أمامكِ المهديّ يهدي به الرحمنَ من خشيَ الضلالا

أما ابن عاتكة ، يزيد بن عبد الملك ، فيصفه بأنَّه المهدي الذي أعطاه الله الدين والتُقى فأصبح مُستقيم الذكر، كما وأُعطي الحُكم الذي ليس كمثله شيء ، وفوق هذا وذاك أُعطي رأفة المهدي ، التي يعطف بها على الناس ، فالشاعر ، هنا ، يُلقي على ممدوحه صفة المهدي العقدية ، وهي الرأفة بالناس بأنْ يُنجيهم من الظلم والجور ، فيقول :

أرَى الله قد أعطّى ابن عاتكة الذي لهُ الدينُ أمسى مُستقيم السّوالفِ

تُقى اللهِ والحُكمَ الذي ليسَ مِثلَهُ ورأفةَ مَهديٍّ على الناسِ عاطفِ(٥)

ولم يقف الفرزدق عند أعلى هرم السلطة ، فحسب ، وإنَّما ينزل إلى كلِّ مَنْ مثلها ، فيصف نصر يسار* بأنَّه المالك المهدي صاحبُ المجدِ التليد ، أولهُ وآخرهُ . ويبدو أنَّ فكرة المهدي ، عند الفرزدق ، ليست بفكرة دينية ، فقط ، وإنَّما فكرة ربحيَّة يلصقها بكلِّ مَنْ وجد منفعته عنده ، فيقول :

هو المَالِكُ المَهدِيُّ والسابِقُ الذي لهُ أولُ المَجدِ التَّلِيدِ وآخِرُهْ(٥)

يبقى ، بعد ذلك ، أنْ نشير إلى أنَّ فكرة المهدي المنتظر ، كانت جزءاً رئيساً من أيديولوجية الأمويين الدينية ؛ الغاية منها إشاعة هذه العقيدة بين المسلمين ، من خلال شعرائهم ؛ حتى يفقدوا آمالهم بالبيت العلوي ، الصاحب الشرعي لهذه الفكرة . ومع ذلك لم يكن الشعر الأموي الذي قيل في هذه الفكرة ـ رغم جودته ـ صادراً عن إيمان قائله به وتفانيه في سبيله ـ على خلاف شعراء الشيعة الذين كانوا ينشدون شعرهم عن إيمان صادق وعقيدة أصيلة في أنفسهم ـ لأنَّ شعراء بني أميَّة كانوا يقولون شعرهم إمَّا تقليداً أو إستنشاداً أو رغبة في صلة أو تحامياً لأذى أو تحاشياً لِاضطهاد.[٢٥]

المبحث الثالث : قُدسيَّة الحَاكم الأموي :

بناءً على ما ذكرناه من أفكار وُصِفَ بها الحاكم الأموي ، من كونه منصَّباً من الله تعالى ، وأنَّه الوريث الشرعي للخليفة المقتول ، عثمان بن عفان ، وأنَّه المهدي المنتظر ، فمن الطبيعي ، إذن ، أنْ تكون هذه الأوصاف كلُّها قد أعطته القدسية ؛ لأنَّ قُدسيته مُكتسبة من هذه الأفكار التي جُمعت به ، ومن هنا لا عجب أنْ يجعل معاوية بن أبي سفيان الخليفة غير مُحاسب يوم القيامة ؛ لأنَّ الخليفة ـ عندهُ ـ اختيار من الله ، فيقول : ((لقد أكرم الله الخلفاء أفضل الكرامة ، أنقذهم من النار وأوجب لهم الجنة وجعل أنصارهم من أهل الشام))[٥] ، ومثل ذلك ما رُوِي لهشام بن عبد الملك قوله : ((مَنْ وُلِّيَ الخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار ، وخطب يوم بويع بالخلافة قائلاً : الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام))[٥] . هذا بغض النظر عن كون الخليفة تقياً أو فاجراً ، فهو مُبرَّأٌ من المعاصي والزَّلات ؛ لأنَّه مُقدس وقدسيته جعلت له حق التصرف بأقواله وأفعاله أنَّى شاء .

أما الشعراء فقد اتخذوا من هذه القداسة المزعومة سوقاً رائجة لتسويق سلعهم ، فلم يدعوا وصفاً يمتُّ إلى هذه القُدسية بصلةٍ إلاَّ وطرقوه ، وانتهوا ـ في ذلك ـ إلى كثير من الغلو والمبالغة ؛ لغرض استمالة قلوب المؤيدين والمعارضين ، في الوقت نفسه ، على اعتبار أنَّ الحاكم الأموي مُنزَّهٌ ومُقدسٌ ، لذا يجب طاعته .

ولنقترب ، قليلاً ، من النصوص ، يقولُ الأخطل في يزيد بن معاوية ـ المعروف بتهتكه واستهتاره ومعاقرته للخمر ـ واصفا إياه بأوصافٍ قدسية ، فهو لا ينسى كرمه وفضله له حتى يُغيَّب في القبر ، وإنَّ كرمه وفضله عليه كفضل الله تعالى على أنبيائِهِ (يوسف ، وداود ، وهارون ، ونوح) عليهم السلام . ومن الواضح أنَّ الشاعر، الأخطل ، قد تجاوز كلَّ الحدود التي تفصل الرَّب عن العبد ، فقد ساوى ، بوصفه هذا ، بين الرتبة العليا التي يختص بها الرَّبُّ جلَّ عُلاه ، وبين الرتبة الدنيا التي حُدِّدت للعبد ، فمن المعيب أنْ يُوصف العبد ،

وإنْ علا شأنُهُ ، بالأوصاف التي يختص بها الرَّبُّ سبحانه ، وهنا تكمن أعلى حدود التمجيد والقداسة لممدوحه، يزيد ، فيقول :

أَما يَزيدُ فَإِنّي لَستُ ناسِيَهُ حَتّى يُغَيِّبَني في الرَمسِ مَلحودُ

جَزاكَ رَبُّكَ عَن مُستَفرِدٍ وَحَدٍ نَفاهُ عَن أَهلِهِ جُرمٌ وَتَشريدُ

مُستَشرَفٍ قَد رَماهُ الناسُ كُلُّهُمُ كَأَنَّهُ مِن سُمومِ الصَيفِ سَفّودُ

جَزاءَ يوسُفَ إِحساناً وَمَغفِرَةٍ أَو مِثلَما جُزِيَ هارونٌ وَداوُودُ

أَو مِثلَ ما نالَ نوحٌ في سَفينَتِهِ إِذِ اِستَجابَ لِنوحٍ وَهوَ مَنجودُ

أَعطاهُ مِن لَذَّةِ الدُنيا وَأَسكَنَهُ في جَنَّةٍ نَعمَةٌ مِنها وَتَخليدُ

فَما يَزالُ جَدا نُعماكَ يَمطُرُني وَإِن نَأَيتُ وَسَيبٌ مِنكَ مَرفودُ(٥)

وعلى هذا النحو ذهب جرير إلى تقديس عبد الملك بن مروان ، فهو لولا قرائتُهُ القرآن ما قامت للناسِ أحكام الدين ؛ لأنَّه أمين الله ، والمُبارك الذي يهدي به الله شيعته ، إذا تفرقت الأهواء والشيع ، ولا عجب ، فهو من آل مروان الذين أرادهم الله واجتباهم ، وحدهم ، للمُلك ، يقول :

لَولا الخَليفَةُ والقُرآنُ يَقرَأُهُ ما قامَ لِلناسِ أَحكامٌ وَلا جُمَعُ

أَنتَ الأَمينُ أَمينُ اللَهِ لا سَرِفٌ فيما وَلِيتَ وَلا هَيّابَةٌ وَرِعُ

أَنتَ المُبارَكُ يَهدي اللَهُ شيعَتَهُ إِذا تَفَرَّقَتِ الأَهواءُ وَالشِيَعُ

يا آلَ مَروانَ إِنَّ اللَهَ فَضَّلَكُم فَضلاً عَظيماً عَلى مَن دينُهُ البِدَعُ(٦)

والشاعر ، نفسه ، يصف دُعاء الحجاج الثقفي بدعاءِ نبيّ الله نوح ، فقد سمع الله دعاءَهُ واستجابَهُ ، ورأى صبره فأثابه ، وأنزل معه ملائكة غضاباً تُقاتل في صفهِ ، فيقول :

دَعا الحَجّاجُ مِثلَ دُعاءِ نوحٍ فَأَسمَعَ ذا المَعارِجِ فَاِستَجابا

صَبَرتَ النَفسَ يا اِبنَ أَبي عَقيلٍ مُحافَظَةً فَكَيفَ تَرى الثَوابا

وَلَو لَم يَرضَ رَبُّكَ لَم يُنَزِّل مَعَ النَصرِ المَلائِكَةَ الغِضابا(١٤)

وعلى شاكلة الأخطل وجرير ، الفرزدق ، فهو يصفُ هشام بن عبد الملك بأوصافٍ قُدسية عدَّة ، فهو خيرُ أهل الأرضِ ، وهو خليفةُ الله ، يهدي اللهُ به مَنْ يشاء ، وهو أميرُ المؤمنين يداه مُحيطةٌ بأهلِ الأرض وحاميةً لهم من كلّ مرصد ، فلا يُخاف من أحدٍ مادام هشام سالماً ، ولا ظُلم في الأرض مادام عدله فيها قائماً ، يقول :

إِلى خَيرِ أَهلِ الأَرضِ مَن يَستَغِث بِهِ يَكُن مِثلَ مَن مَرَّت لَهُ طَيرُ أَسعَدِ

وَلَو أَنَّني أَستَطيعُ سَعياً سَعَيتُهُ إِلَيكَ وَأَعناقِ الهَدِيِّ المُقَلَّدِ

خَليفَةُ أَهلِ الأَرضِ أَصبَحَ ضَوءُهُ بِهِ كانَ يَهدي لِلهُدى كُلَّ مُهتَدِ

فَإِنَّ أَميرَ المُؤمِنينَ مُحيطَةٌ يَداهُ بِأَهلِ الأَرضِ مِن كُلِّ مَرصَدِ

فَلَستُ أَخافُ الناسَ ما دُمتَ سالِماً وَلَو أَجلَبَ الساعي عَلَيَّ بِحُسَّدي

سَيَأبى أَميرُ المُؤمِنينَ بِعَدلِهِ عَلى الناسِ وَالسَبعَينِ في راحَةِ اليَدِ

وَلا ظُلمَ ما دامَ الخَليفَةُ قائِماً هِشامٌ وَما عَن أَهلِهِ مِن مُشَرِّدِ(١٥)

ويجعل الفرزدق هشام بن عبد الملك ، أيضاً ، في مصاف الأنبياء من حيث ما يتصفون به من صفات تؤهلهم للرسالة ، فلو أُرسل جبريل إلى غير الأنبياء لَأُرسلَ لهشام :

ولَوْ أُرْسِلَ الرّوحُ الأمينُ إلى امرِىءٍ سَوى الأنْبياءِ المُصْطَفَينَ الأكارِمِ

إذاً لأتَتْ كَفَّيْ هِشامٍ رِسَالَةٌ مِنَ الله فيها مُنزَلاتُ العَواصِمِ(١٦)

وقريب من هذا ، فكرةً وصياغة ، مدحه ليزيد بن عبد الملك :

ولو كانَ بعدَ المُصطفى من عبادِهِ نبيٌّ لهم منهُمْ لأمرِ العَزائِمِ

لكنتَ الذي يختارُهُ اللهُ بعدَهُ لحملِ الأماناتِ الثقالِ العَظائِمِ

ورثتُمْ خليلَ اللهِ كُلَّ خزانَةٍ وكُلَّ كتابٍ بالنبوةِ قائِمِ

وحبلُكَ حَبلُ اللهِ مَنْ يعتصِمْ بهِ إذا نالَهُ يأخُذْ به حَبلَ سالِمِ(٧)

فيزيد بن عبد الملك هو (خليل الله) , ولولا أنَّ محمداً ﷺ لم يكن آخر الأنبياء , لكان يزيد هو النبي بعده . لا ، بل أنَّ يزيداً هو النبي المنتظر ـ حقّاً ـ لو لم يُبشِّر عيسى بالنَّبي محمد:(٨) ﷺ

لو لم يُبشِّر به عيسى وبَيَّنهُ كنتَ النَّبيَّ الذي يدعو إلى النُّورِ(٩)

أما عمر بن عبد العزيز فهو ـ عند عدي بن الرقاع العاملي ـ من المصطفين الأخيار ، وأنَّه خيرُ بني حواء على الأرضِ ، بعد النبي ﷺ ، يقول :

مَدَحتُ أَميرَ المُؤمِنينَ الَّذي اِصطَفى لَنا رُبُّنا فَضلاً عَلى كُلِّ مُسلِمِ

بَني الحَمد فيهِ فَـارتَقى في مُشَرَّفٍ رَفيعٍ مِنَ البُنيانِ لَم يَتَثَلَّمِ

فَما في بَنى حَوّاءَ فَرعٌ يَفوقُهُ بِفاضِلَةٍ دونَ النَبِيِّ المُكَرَّمِ

ويبالغ الشاعر ، نفسه ، في وصف الوليد بن عبد الملك فيدَّعي أنَّ الله تعالى يُصلِّي على الوليد مثلما صلَّى على الرسولِ الكريم ﷺ . وهذه أعلى أنواع القُدسية والتمجيد التي ألقاها النُميري على الوليد ، يقول :

صَلّى الَّذي الصَلواتُ الطَيِّباتِ لَهُ وَالمُسلِمونَ إِذا أَجمَعوا الجُمَعا

عَلى الَّذي يَسبِقُ الأَقوامَ ضاحِيَةً بِالأَجرِ وَالحَمدِ حَتّى صاحَباه مَعا

هُوَ الَّذي جَمَعَ الرَحمَنُ أُمَّتَهُ عَلى يَدَيهِ وَكانوا قَبلَهُ شِيَعا

وَعَلَّقَ اللَهُ أَسبابَ الأُمورِ بِهِ وَلَم يُطِق حامِلٌ فَوقَ الَّذي اِضطَلَعا(١٠)

ومن نحو هذه المبالغات ، أيضاً ، قول ليلى الأخيلية واصفةً الحجاج بأنَّه الثالث بهذا الكون ، بعد الله تعالى والخليفة ، وهو سِنان الحربِ إذا أُعلنت ، وهو ضياءٌ للناس في الظُلَم :

حجاجُ أنت الذي ما فوقه أحد إلا الخليفةُ والمُستغفرُ الصمدُ

حجاجُ أنت سِنان الحربِ إن نهجت وأنت للناسِ في الداجي لنا تَقِدُ(٦)

ولعلَّه من هنا وهناك أصبح للحاكم الأموي قدسية ، أخرى ، يتبرك بها الشاعر . فعندما مرَّ على الناس قحطٌ ، في زمن الوالي بشر بن مروان ، دعا لهم بأنْ ينزل الله الغيث وينبت الزرع ، فأمطرت السماء مطراً غزيراً . وفي ذلك يقول سراقة في مدحه لبشر :

دعا الرَّحمنَ بشرٌ فاستَجابا لدعوتِهِ فأسْقانا السَّحابا

وكانَ دعاءُ بشرٍ صَوْبَ غَيثٍ يُعاشُ بهِ ويُحيَى ما أصَابا

أَغرُّ بوجهِهِ يُسقَى ويُحْيا ونَسْتَجلِي بغرَّتِهِ الضَّبابَا(٧)

ويقول الفرزدق في مديح هشام بن عبد الملك :

هشامٌ خيارُ اللهِ للناسِ والذي بهِ يَنْجلِي عن كلِّ أرضٍ ظَلامُها

وأنتَ لهذا الناسِ بعدَ نبيِّهِمْ سماءٌ يُرجَّى للمُحُولِ غَمامُها

وأنتَ الذي تلوِي الجنودُ رُؤُوسَها إليكَ وللأيتامِ أنتَ طَعامُها(٨)

فالممدوح غير عادي ، يُشفى به ، ويُعاش به ، فبه تمطر السماء ، ويُرفع الضباب ، ويُجلى الظلام .

وعلى هذا النحو ، أيضاً ، يقول عدي بن الرَّقاع يمدح الوليد بن عبد الملك :

فأنتَ غَيثٌ بإذنِ اللهِ أرسلَهُ للمُسلمينَ حَيَاً والأرضِ عُمْرانا(٩)

وقريب منه قوله فيه :

إذا وعدتَ النَّاسَ خيراً جاءَهُمْ عفواً وأنتَ لِمَا تقولُ فعولُ

أمراً قضاهُ على لسانِكَ ربُّنا فَنَداكَ لا عِسْرٌ ولا مَمْطولُ

فالحمدُ والنعماءُ للهِ الذي جُعلتْ كرامتُهُ إليكَ تَؤولُ(١٠)

وعلى هذه الشاكلة نرى كيف أنَّ الحُكام الأمويين قد أسسوا لهذا التمظهر الخدَّاع ، الذي غدا أيديولوجيتهم الدينية التي استولوا بها على الحُكم فخدعوا المجتمع الإسلامي ، وتحققت لهم ـ من خلاله ـ مكانة اجتماعية مؤثرة أوصلتهم إلى مآربهم وأهدافهم . ومع ذلك ليس مبالغة أنْ يقال إنَّ المجتمع الإسلامي الذي يأنُّ اليوم من هذه المظاهر الخداعة ، والمتقنعة بقناع الدين ، كانت بداياتها مع بدايات حُكم بني أمية للمسلمين .

نتائج البحث :

١. وظَّف الأمويون ـ من خلال شعرائهم ـ مذهب الجبر في الخلافة ؛ لأثبات حقهم فيها ، وتعلقوا به ؛ لتصحيح احتِيازهم لها ، فقد استقروا على أنَّ الله اختارهم للخلافة ، وآتاهم المُلك ، وأنَّهم يحكمون بإرادته ، ويتصرفون بمشيئته . ومن هنا لا معنى لحقوق الرعيَّة بعد أنْ أعطى الله حقَّ التأمُّر على عباده للحاكم ، فالأرض لله ، وهو خليفته ، ويجب على الناس أنْ يُبايعوه ، طوعاً أو كرهاً ، والموت لِمَنْ لم يُبايعْ .
٢. أثبتنا أنَّ عقيدة المهدوية كانت جزءاً رئيساً من أيديولوجية الأمويين الدينية ؛ الغاية منها إشاعة هذه العقيدة بين المسلمين ؛ حتى يفقدوا آمالهم بالبيت العلوي ، الصاحب الشرعي لهذه الفكرة .
٣. غالى الشعراء كثيراً في معاني المدح ، وزيَّفوا عواطفهم ، فخرج شعرهم عن الحقيقة ، وجاءت مدائحهم ذات نغمة واحدة ، تقريباً ، فالحاكم الأموي مُنزَّهٌ ومُقدسٌ ، لذا يجب طاعته .

الهوامش :

[١] التعريفات ، الجرجاني ، ص٧٤ .
[٢] المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية واللاتينية ، د. جميل صَليبا ، ج١، ص٣٨٨ .
[٣] ينظر : جواهر التاريخ ، علي الكوراني العاملي ، ج٢،ص٢٢٣ .
[٤] تيارات الفكر الاسلامي ، د. محمد عمارة ، ص٤٥ .
[٥] الامويون والخلافة ، د. حسين عطوان ، ص١٩ .
[٦] سورة النساء ، آية : ٥٩ .
[٧] البداية والنهاية ، ابن كثير ، ج٨ ، ص١٣١ .
[٨] انساب الاشراف ، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري ، ج٥ ، ص٢٠ .
[٩] ينظر : جواهر التاريخ ، علي الكوراني العاملي ، ص٢١٣، ٣٣٠.
[١٠] الخطاب السياسي في شعر العصر الاموي، اطروحة دكتوراه ، بهجت مهجر حبش الطعمة ، (أطروحة دكتوراه) ،ص٣١ .
[١١] ينظر، شعر البصرة في العصر الأموي ، دراسة في السياسة والاجتماع ، د. عون الشريف قاسم ، ص١٥٦.
[١٢] الشاعر مؤرخاً، د. عبدالله التطاوي، ص٣٢ .
[١٣] ينظر : النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، عبدالله الغذامي ، ص١٥٤ .
[١٤] الإيديولوجيا : مركب من الافكار والتصورات والعقائد التي توجه الانشطة العقلية والنفسية والسياسية والاجتماعية ، التي تستهدف المحافظة على النظام وحماية مصالحه، وتبرير مواقفه ، واضفاء الشرعية عليه ، أي تبرير الخطأ وجعله سائغاً . ينظر: سوسيولجيا المنقذ ، ايديولجيا الغيبة ويوتوبيا الظهور، احمد الصحاف، جامعة الكوفة، ص٥٨ .

[١٥] ديوان جرير ، ص٣٤ .

[١٦] نفسه ، ص ٣٨٠ .

[١٧] نفسه ، ص٢١١ .

[١٨] نفسه ، ص٣٤ .

[١٩] ديوان الاخطل ، ص٢٧ .

[٢٠] ديوان الفرزدق ، ص٢٦ .

[٢١] نفسه ، ص٨٢ .

[٢٢] ديوان الراعي النميري ، ص٦٣ .

[٢٣] ديوان عدي ين رقاع العاملي ، ص٩١، ٩٢.

[٢٤] نفسه ، ص١٧١.

[٢٥] نفسه ، ص٢٠٩.

[٢٦] نفسه ، ص١٥٩-١٦٠.

[٢٧] ينظر : اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، د. صلاح الدين الهادي ، ص١٤١ .

[٢٨] ينظر : تمثلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط ، د. نادر كاظم ، ص١٠٢ .

[٢٩] ينظر: سوسيولجيا المنقذ ، أيديولوجيا الغيبة ويوتوبيا الظهور، أحمد الصحاف، ص٤٣ .

[٣٠] المهدية في الاسلام منذ أقدم العصور حتى اليوم دراسة وافية لتاريخها العقدي والسياسي والادبي ، سعد محمد حسن ، ص٤٥ .

[٣١] الضحى ، آية ٧ .

[٣٢] ينظر : معجم اللغة العربية المعاصرة ، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر ،ج٣، ص٣٣٦ .

[٣٣] سنن الترمذي ، ج٤، ص٥٠٦ .

[٣٤] مسند الإمام أحمد بن حنبل ،ج١٧، ص٣١٠ .

[٣٥] سنن ابن ماجه ،ج٢، ص٣٨٨ .

[٣٦]* ليس الاعتقاد بظهور المخلص مقصوراً على الشيعة أو غير الشيعة من فرق المسلمين ، إذ أنَّه اعتقاد شائع في كثير من الديانات الشرقية . ينظر: : نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثني عشرية ، تحليل فلسفي للعقيدة ، د. أحمد محمود صبحي ،ص٣٩٨ .

المهدويَّة في الأشعار الأمويَّة والعبّاسيَّة (مقاربة نقديَّة نصيَّة)، أ.د. أحمد حياوي السعد، (بحث)

[٣٧] ديوان كثير عزة ،ص٢٣٢.

[٣٨] نفسه ، ص٤٩٦ .

[٣٩] ديوان السيد الحميري ، ص١٧٧.

[٤٠] ينظر : ادب السياسة في العصر الأمويّ ، أحمد الحوفي ، ص١٤٥.

[٤١] ينظر: صورة الخليفة في الشعر الأموي ، صالح آرديني، ص٢٨ .

[٤٢] ديوان جرير، ص٢١٠ .

[٤٣] نفسه ، ص١١٦ .

[٤٤] نفسه ،ص٣٤٦ .

[٤٥] نفسه ، ص٤١٠ .

[٤٦] ديوان الفرزدق ص٧٥.

[٤٧] نفسه ، ص٢٣١ .

[٤٨] نفسه ، ص٢٣ .

[٤٩] ديوان الفرزدق ، ص٤٤٦ .

[٥٠] نفسه ، ص٣٧٨ .

[٥١] نفسه ، ص٢٤٧ .

[٥٢] ينظر : المهدوية في الأشعار الأموية والعباسية ، مقاربة نقدية نصية ، د. أحمد حياوي السعد (بحث) : ٢٩

[٥٣] انساب الأشراف،ج٥، ص١١٧ .

[٥٤] نفسه،ج٥، ص١١٧ .

[٥٥] ديوان الاخطل، ص٧٩ .

[٥٦] ديوان جرير، ص٢٧٨ .

[٥٧] نفسه، ص٢١ .

[٥٨] ديوان الفرزدق، ص١٢٩ .

[٥٩] نفسه ، ص٢٠٦، ٢٠٧ .

[٦٠] نفسه ، ص٥٣٥، ٥٣٦ .

[٦١] اقصاء الآخر في الشعر الأموي (رسالة ماجستير) : ١٠١ .

[٦٢] ديوان الفرزدق ، ص١٦١ .

[٦٣] ديوان عدي بن رقاع العاملي ، ص١٢٩- ١٣١ .

[٦٤] ديوان الراعي النميري ، ص٢١٩- ٢٢١ .

[٦٥] ديوان ليلى الأخيلية، ص٦٣ .

[٦٦] ديوان سراقة البارقي : ص ٧٩.٨٠. وينظر : إقصاء الآخر في الشعر الأموي (رسالة ماجستير) : ص١٠٤ وما بعدها .

[٦٧] ديوان الفرزدق ، ص٤٩٨، ٤٩٩ .

[٦٨] ديوان عدي بن رقاع العاملي، ص١٧٣ .

[٦٩] نفسه ، ص٢٠٩ .

مصادر البحث ومراجعه :

- القرآن الكريم .
- اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، د. صلاح الدين الهادي ، ١٩٨٦م .
- الأمويون والخلافة ، د. حسين عطوان ، دار جيل ، ١٩٨٦م .
- أنساب الأشراف ، أحمد بن يحيى البَلَاذُري (ت : ٢٧٩هـ) ، تح : إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٩م.
- البداية والنهاية ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت : ٧٧٤هـ) ، دار الفكر، ١٩٨٦م.
- التعريفات ، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت : ٨١٦هـ) ، تح : محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة للطباعة والنشر ، د.ت .
- تمثيلات الآخر ، صورة السود في المتخيّل العربي الوسيط ، د. نادر كاظم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ٢٠٠٤ م .
- تيارات الفكر الإسلامي ، د. محمد عمارة ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر، ط٤ ، د.ت .
- جواهر التاريخ ، علي الكوراني العاملي , دار الهدى للطباعة والنشر ، ١٤٢٦هـ.
- جواهر التاريخ ، علي الكوراني العاملي , دار الهدى للطباعة والنشر ، ١٤٢٦هـ.
- ديوان الأخطل ، تح : مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٩٩٤م .

- ديوان جرير ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٨٦م .
- ديوان الراعي النميري ، جمعه وحققه : رابنهرت فابيبرث ، بيروت ، ١٩٨٠م .
- ديوان السيد الحميري ، شرحه وضبطه وقدم له : ضياء حسين الأعلمي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩م .
- ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي ، تح : د. نوري حمود القيسي ، و د. حاتم صالح الضامن ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٧م
- ديوان الفرزدق ، شرحه وضبطه وقدم له : علي فاعور ، دار الكتب العامة ، بيروت ،١٩٨٧ م .
- ديوان كُثير عزَّة ، جمعه وشرحه : د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ،١٩٧١م.
- ديوان ليلى الأخيلية ، تح : خليل ابراهيم العطية ، وجليل العطية ، دار الجمهورية ، بغداد ،١٩٦٧م .
- سوسيولجيا المنقذ ، ايديولجيا الغيبة ويوتوبيا الظهور ، أحمد الصحاف ، جامعة الكوفة ، سلسلة دراسات فكرية ، بيروت ، لبنان ، ٢٠١٩م .
- الشاعر مؤرخاً ، د. عبدالله التطاوي ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت .
- شعر البصرة في العصر الأموي ، دراسة في السياسة والاجتماع ، د. عون الشريف قاسم ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٩١م .
- صورة الخليفة في الشعر الأموي ، د . صالح محمد حسن آرديني ، ٢٠١٢م .
- الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية ، إحسان سركيس ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان ، ١٩٨١م .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، (ت : ٢٤١هـ) تح : شعيب الأرنؤوط وآخرون ، إشراف : د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ٢٠٠١ م.
- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية ، د. جميل صليبا ، دار الكتب اللبنانية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٢م .
- معجم اللغة العربية المعاصرة ، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت : ١٤٢٤هـ) ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨م.
- المهدية في الإسلام منذ أقدم العصور حتى اليوم دراسة وافية لتاريخها العقدي والسياسي والأدبي ، سعد محمد حسن ، دار الكتاب العربي بمصر ،١٩٥٣م .
- نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية ، تحليل فلسفي للعقيدة ، د. أحمد محمود صبحي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩١م.
- النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، عبد الله الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، المملكة المغربية ، الدار البيضاء ، ط٣ ، ٢٠٠٥م .

الأطاريح والرسائل الجامعية :

- الخطاب السياسي في شعر العصر الأموي ، بهجت مهجر حبش الطعمة ، أطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة ، كلية الآداب ، ٢٠١٠م .

البحوث والمقالات :

- المهدويَّة في الأشعار الأمويَّة والعباسيَّة (مقاربة نقديَّة نصّيَّة) ، د. أحمد حياوي السعد ، مجلة الموعود ،ع ٥ ، ذو القعدة ، ١٤٣٩هـ .